مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 717 - 730 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أدوات التصوير الفني في المثل الشعبي الجزائري وأبعادها التداولية و الحجاجية.

Technical Figuration Tools in the Algerian Popular Proverb and its Pragmatic and Argumentative Dimensions

د. بشير مولاي لخضر [1] ، د. نورة حاج قويدر [2] *

Bachir molaylakhdar [1], noura hadj kouider[2]

مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري، جامعة غرداية – الجزائر

Laboratory of cultural, linguistic and literary heritage in southern

University of ghardaia- Algeria

moulaylakhdarbachir69@gmail.com [1]

noura47hadj@gmail.com [2]

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول:2020/10/10	تاريخ النشر: 2020/12/25

ملخص البحث

يمتاز المثل بطابعه القولي، وهذا المظهر يظل مرافقا له إنتاجا وتلقيا حتى في تلك الأحوال التي يساق فيها مكتوبا؛ أي إن طبيعته التداولية تظل كامنة فيه، وحاضرة في سياقه بوصفه خطابا، ولأجل هذا الملمح التداولي الذي يفترض مرسلا ومتلقيا ووظيفة، يتوسل المثل بأدوات فنية يستعين بها على أداء غاياته التأثيرية، ومن أهم تلك الوسائل: التصوير الفني والإيقاع بأنواعه المختلفة،. ومن هنا تحاول هذه الورقة البحثية رصد وسائل المثل على الصعيدين السابقين من خلال إشكالية عامة هي: فيم تتلخص أدوات التصوير الفني في المثل الشعبي الجزائري؟ وكيف يستثمر تلك الأدوات في تحقيق قيمه التداولية؟

الكلمات المفتاحية: التصوير، الحجاج ، المثل، الشعبي، الجزائري.

Abstract :

The proverb is characterized by its verbal feature, and this aspect continues to accompany its production and reception even in cases where it is written; that is to say, its pragmatic nature remains inherent in it and is present in its context like discourse. And for the sake of this pragmatic aspect, which assumes a sender, a receiver, and a function, the proverb invokes some technical tools to be used to perform its influential goals; among the most important of these means: artistic figuration and rhythm in its various types. Hence, this research paper attempts to track the means of the proverb at the two previously mentioned levels through a general problematic: What are

* نورة حاج قويدر. noura47hadj@gmail.com

the artistic figuration tools summarized in the popular Algerian proverb? And how does proverb invest these tools in achieving its pragmatics values?
Keywords: Figuration, Argumentation, Proverb, Popular, Algerian .

توطئة:

يتميز المثل الشعبي بخاصية جعلته ينفرد عن بقية الأنواع الأدبية الأخرى، وتلك الميزة تتمثل في طابعه اللغوي التداولي، فقد أَلِف العامة استحضاره كلما سنحت لهم الفرص، مما هيأ له الاحتفاظ باستمراريته وديمومته على مرِّ العصور والأزمان، فهو يعتبر واجهة تُلخص أفكار المجتمع وتكرِّس هويته الثقافية والحضارية على السواء.

ويتكئ المثل الشعبي على غير قليل من الوسائل الفنية، يستخدمها لغايات حجاجية، وفي مقدمتها الأدوات التصويرية التقليدية بطابعها البلاغي. وهو بدوره يستعين بتلك الأدوات من منظور تداولي، لتحقيق الأفعال الإنجازية والغايات التأثيرية في المتلقي، لينخرط في المنظومة الاجتماعية التي يعتبر المثل واجهة من واجهاتها العرفية.

أولا: المعنى اللغوي والاصطلاحي للمثل:

1/المعنى اللغوي للمثل: جاء في لسان العرب: المثل: مثل: كلمة تسوية، يقال هذا مثله ومَثَله، كما يقال شِبهه وشَبَهُه بمعنى .والمثل: الشبه يقال: مِثل، ومَثَل وشبه وشبهْ وشَبَه بمعنى واحد، قال ابن جني: وقوله عز وجل: "فوربِّ السَّماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون".[1] وجاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن "والمثل عبارة عن قول شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره. نحو قولهم: الصَيف ضيَّعتِ اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملتُ وقت الإمكان أمرك"[2]. فنلاحظ أن المعاجم اللغوية تواترت في تعريف المثل على خاصية التشبيه، "فالمثال هو المقدار وهو الشبه، والمثل ما جعله مثالاً أي مقداراً لغيره يُحدى عليه."[3]

لكن رغم اختلاف القدماء من اللغويين والبلاغيين في تعريفهم للمثل، إلا أنهم يتفقون كما قلنا آنفاً على خاصية التشبيه، فها هو صفي الدين الحلي –وهو من البلاغيين– في تعريفه للمثل يقول" هو تشبيه وجههُ غير حقيقي منتزع عن عدَّة أمور، وهو تشبيه حال بحال"[4].

2/المفهوم الاصطلاحي للمثل:

عرَّف النقاد القدماء المثل بأنه "قولٌ يرد أولاً لسبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه فيُستعملُ فيها شائعاً ذائعاً على وجه تشبيهها بالمورد الأول."[5] كما عرَّف ابن عبد ربه الأمثال في كتابه العقد الفريد بقوله: "إنها وشيُ الكلام وجوهر اللفظ، وحَلْى المعاني والتي تخيَّرتها العرب، وقدَّمها العجم، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسْر شيء مسيرها ولا عمَّ عمومها."[6]

كما نجد من يربط المثل بالصفة وذلك في تعريف الميداني للمثل في قوله: "يقال مثلك ومثل فلان، أي صفتك وصفته ومنه قوله تعالى: مثل الجنة التي وعد بها المتقون أي صفتها ولشدة امتزاج معنى الصفة به صح أن يقال جعلت زيداً مثلا والقوم أمثالاً ومنه قوله تعالى: ساء مثلا القوم ، جعل القوم أنفسهم مثلا في أحد القولين."[7]

أما في تعريف النقاد المحدثين فنذكر تعريف الباحثة نبيلة إبراهيم حيث تقول "المثل قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة، ولسنا نبالغ إذا قلنا أن كل مثل يصلح أن يكون موضوعاً لعمل أدبي كبير إذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله فيعكس تجربة المثل ويعبر عنها تعبيراً تحليلياً دقيقاً"[8]، مما نلمسه في التعريف أنه حدد صفات المثل بكونه، مشبعا بالذكاء والحكمة وذلك يرجع إلى كون المثل عبارة عن تلخيص لتلك السلوكات أو الحوادث التي تقع، فمسألة تطابق تلك العبارات مع ما يجري ينِمّ عن ذكاء وفطنة صاحب المثل ومقدرته الفذة على التعبير واختيار الكلمات التي تتلاءم مع الموقف. أما الجزء الثاني من التعريف فهو يرجع إلى اعتبار المثل بؤرة مكثفة بالدلالات من خلالها نستطيع استيحاء العديد من الأفكار والاستنتاجات تفسح للمبدع خلق عمل أدبي يتسع ويبلغ في حجمه أضعاف ذلك المثل.

يصادفنا تعريف آخر "لفريديريك زايلر"، حيث ربط المثل الشعبي بقوله" هو القول الجاري على ألسنة الشعب الذي يتميز بطابع تعليمي، وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة"[9]، فهذا التعريف يبين لنا خصائص المثل الشعبي فهو: ذو طابع شعبي، ذو طابع تعليمي، ذو شكل أدبي يفوق أشكال التعبير المعتادة. وربما هذا هو السبب في تداول المثل الشعبي أكثر من المثل الفصيح على اعتبار أنه أقرب اللغة اليومية المتداولة. ويرى الدكتور التلي بن الشيخ أن " المثل الشعبي أقدر الأنواع الأدبية على تصوير العلاقات الاجتماعية، وأقربها إلى الصدق في التعبير عن التناقضات الحياتية المتداخلة"[10]. ويؤكد محمد إبراهيم أبو سنة على أن المثل تعبير صادق عن

التجارب الإنسانية حين يقول: "المثل عبارة عن قول مأثور وجد أصداء داوية في النفوس فشاع وانتشر وأصبح لغة متداولة يسهل التفاهم بها. وهو قد صار قولاً مأثوراً لأنه نوع من عصير الحياة، محلول الخبرة والتجربة الإنسانية في جميع مجالاتها"[11].

ثانيا: مفاهيم حول التداولية:

1/**المعنى اللغوي للتداولية:** تشير المعاجم اللغوية حول مفردة "دول" ومؤنثها "دولة" إلى العقبة في المال والحرب، وهي اسم للشيء الذي يتداول به بعينه، وهي الانتقال من حال الشدة إلى الرخاء، وتداولنا الأمر أخذناه بالدول، وقالو دواليك أي مداولة على الأمر، أو تداول بعد تداول، ودالت الأيام أي دارت. وقد أداله وتداولوه أخذوه بالدول.[12] نلاحظ أن المعنى اللغوي لكلمة دول تشير إلى الانقلاب والتحول والتعاقب.

2/المفهوم الاصطلاحي للتداولية: تعتبر التداولية من العلوم المعرفية التي ظهرت بظهور علم اللغة، فهي تنسب إلى الدراسات اللسانية" وهي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية. وهي أيضا دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت."[13]

جاءت التداولية فأعطت لبعض الجمل غير الدالة مجموعة من الوظائف، ومن بين تلك الوظائف أفعال اللغة التي ادخلها أوستين في إطار العبارات الإنجازية، كما قسمها إلى أفعال حكمية وأفعال الممارسة، وأفعال تعهدية، وأفعال سلوكية، وأفعال عرضية، كما تتغير معاني تلك الأفعال بتغير السياق وهو ما سماه غرايس بالاستلزام الحواري.[14] وسيكون بالرغم مما سبق، مناسبا الإلفات إلى العلاقة المتينة بين المثل والمقامات التداولية الحجاجية، فإذا كانت التداولية ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة حال الاستعمال" دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات الخطابية"[15]، بالصورة التي تتكشف بها الدلالات بمراعاة السياق التواصلي، فإن المثل من النماذج الراقية لهذه الوضعية ذلك أن المثل يستهدف " الفعل التأثيري acte perlocutoire و تكون الغاية من إنتاجه أن نحدث أثرا في السامع و هو أثر يختلف عن مجرد فهم الكلام وهذا كثير في استعمال الأمثال خاصة حين المحاججة و تستمد الأمثال الشعبية فعلها التأثيري من سلطتها الاجتماعية: "[16].

مثال:

جَوّعْ كَلّبَكْ يْتَبْعَكْ ⟸ فعل القول

آمرك بأن تجوع كلبك ⟸ الفعل الانجازي

أجوع كلبي ليتبعني ⟸ الفعل التأثيري

ويتصل بهذا المقام، التوكيد على حقيقة أن فاعلية الصورة البيانية في الخطاب، وفي المثل تخصيصا، لا تنحصر في الحلة الأسلوبية والغاية الجمالية الصّرفة؛ ولكنّها تتجاوز ذلك إلى مقاصد حجاجية وإقناعية؛ ذلك أن التصوير" عملية استدلالية تقوم على الانتقال من المعنى إلى معنى المعنى، أو من الدلالة الوضعية إلى دلالة أخرى عقلية. الأولى دلالة مطابقة والثانية دلالة مستلزمة"[17].

ومن ثمة فليس هناك أي مظهر للارتجال أو العلاقات العشوائية بين الصورة (المعنى) ومقتضياتها (معنى المعنى)؛ وإنما هي علاقة داخلية ينتظمها قانون و منطق محدد يرتبط فيه السبب بنتيجته والعكس " من الملزوم إلى اللازم كما نقول (رعينا غيثا)، والمراد النبت...، أما الجهة الثانية فكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم، كما نقول فلان طويل النجاد، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد..."[18].

ومن هنا يصبح البيان قضويا لا شكليا ولا مجرد حلية، بصورة يتجلى فيها قائما على ادعاء لإثبات أو نفي، وهذه الوجهة تنتظم مختلف ألوان البيان، من استعارة وكناية وتشبيه ومجازات بأنواعها "فوحقّك إذا شبّهت قائلا (خدّها وردة) تصنع شيئا، سوى أن تلزم الخدّ ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية. فيتوصل بذلك إلى وصف الخدّ بها. أو هل إذا كنّيت قائلا(فلان جمّ الرماد) تثبت شيئا غير أن تثبت لفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى...وهل إذا استعرت قائلا (في الحمّام أسد) تريد أن تبرز من هو في الحمّام في معرض من سداه ولحمته شدة البطش..."[19].

لأجل ذلك فإن الصورة البيانية استدلالية وحجاجية سواء من حيث بنيتها أو من حيث وظيفتها في علاقتها بالمتلقي بهدف إقناعه لا من حيث مطابقة الصورة للواقع الخارجي فحسب؛ ولكن من حيث مطابقة اللفظ للمعنى أيضا. وقولنا في المثل الشعبي(النار تولد الرماد) كناية عن غلبة الطباع على الأشياء، فلا ينتظر من شيء ما مخالفة جنسه وطبيعته، تعبير استعاري بطريق التحويل والاتساع بأهداف تداولية و حجاجية بحيث يتحقق أن تترجم إلى جملة إنجازية وفق " أوستين "

هي "أوكد أن النار تلد الرماد" أو تأكدوا أن النار تلد الرماد" وليغدو الفعل الإنجازي هو "إن النار لن تلد سوى الرماد"؛ أما الغاية التأثيرية فهي التحذير: إياك أن تصدق أن النار يمكن أن تلد غير الرماد".

ثالثا: الأبعاد التداولية والحجاجية للصورة في المثل الشعبي:

1/الاستعارة: "إن الجو الغريب الذي تمنحه الاستعارة يتأتى من استنادها كما يرى أرسطو إلى عنصر التنافر"[20]، لذلك نجد المثل الشعبي يستند في الكثير من الأحيان على الاستعارة، كأداة للتأثير في المتلقي، وذلك عبر تفجيرها لدلالات متناقضة "فإننا عندما نستعمل استعارة تكون عندنا فكرتان لشيئين مختلفين يعملان معاً، ويستندان إلى كلمة واحدة أو عبارة واحدة يكون معناها حاصل تفاعل بين هاتين الفكرتين"[21]، فالفكرة الأولى التي نستشفها من المثل الشعبي :"النَّارْ شَبْعَتْ من لَحْطَبْ: يُضرب هذا المثل للشخص الذي يتصرف تصرفاً مخالفاً لما ألف به لذلك يُضرب هذا المثل بهذه الصورة ليبعث الخيال على التفكير في هذه الصورة التي تخالف وتعاكس ما ألفناه""[22] أو "ابْلِيسْ يَنْهِي الْمُنْكَرْ: ويضرب في الإنسان الشرير الذي يعمل خيراً"[23].

فنلاحظ استعارة مكنية في المثل الأول حيث إنه استعار صفة تخص الإنسان وهي (الشبع) وأسقطها على شيء مادي (النَّار)، أو ذات غير مرئية متخيلة في ذهنية الفرد كشخصية (إبليس) كما في المثل الثاني، فجاءت هذه الاستعارة الثانية على سبيل الاستعارة المكنية أيضاً، حين شبه إبليس بالإنسان الواعظ فحذف المشبه به وترك أحد لوازمه وهي كلمة "ينهي".

أما الفكرة الثانية والتي أحدثت بدورها المفارقة والتناقض فأساسها أن يصطدم المفهوم مع السياق الطبيعي المعهود، فنحن لم نشهد أن النَّار تشبع من الحطب بل العكس هو الصحيح، كما لم يقرَ في الأذهان أن إبليس الذي هو رمز الضلال والشرِّ المطلق يكون سبباً للرشد والنصح...ويمكن تلخيص مقاصد المتكلم في المثلين السابقين تداوليا باعتبار الفعل الإنجازي، في: التعجيب والاستغراب بالإضافة إلى التحذير: لأن شبع النار من الحطب – وهو وقودها– متعذر، ونهي إبليس عن المنكر يدعو إلى العجب والاستغراب، فإن حدث فهو مقاميا يحيل على حالتين: إما السخرية حين يدَّعي شخص خلاف مألوفه، فنوظف المثلين للإحالة على عدم

اغترارنا بتمويهه؛ أو بالمقابل على حالة من التسليم بإمكان وقوع النادر. وفي الحالة الأولى يتعزز فعل إنجازي هو التحذير بعدم الاغترار بالمظاهر لأنها قد تكون خادعة.

كما نلاحظ أيضاً أن المثل الشعبي يستمد قوته وتأثيره من الخبرة الإنسانية، الأمر الذي يحمله على استخدام آلية الاستعارة لأنها تختزل تلك التجربة الإنسانية وتلخصها في تعبير مجازي يضمن لها الانتقال السليم والفعَّال في ذهن المتلقي، فنجد في المثل الشعبي التالي:" لَكْلاَمْ الزَّيْن ايْخَلَّصْ الدَّيْنْ: ويضرب في ضرورة المعاملة الحسنة بين الناس في القول"[24]، نجد المثل قام على استدعاء سياق مجازي، من خلال تشبيه الكلام الطيب بالمال، بقرينة هي (يخَلّص) فحذف المشبه به ورمز إليه بما يدل عليه. و البعد التداولي للمثل في ارتباطه بالمتلقي متحقق من خلال فعل إنجازي مُتَضَّمن بالرغم من صيغته التقريرية. فكأن صاحب المثل يقول ناصحا ومرغبا: احرص على لين القول، فهو جدير بأن يسدد عنك الدين.

كما يصادفنا مثل آخر يتكلم عن تأثير الكلمة الجارحة في النفوس يقول المثل: "يبرى فم الجرح وما يبرى فم العار: ويُضرب في تبين الأثر السيئ الذي تُخلفه كلمة السوء والذي يكون أشد عمقاً من أثر الجرح الذي قد يندمل مع الأيام."[25] وبالرغم من أن الصورة هنا ليست استعارة، بقدر ما أنها تشبيه؛ إلا أنها تنهض بوظيفية تداولية مزدوجة، بحيث تتوجه بالترغيب في الكلام الطيب اللين، وتُحذِّر من الكلام الجارح الذي لا يمحي أثره على مرِّ الأيام.

و ينهض التعبير المجازي بتشخيص المعنى لتضطلع الصورة بوظيفة حجاجية في سياق التداول، من خلال الإحالة على مرجعيتها الواقعية غير القابلة للدحض، وهو ما نلمسه في التعبير الاستعاري في المثل "الشَّبْكَه تَطْنَزْ عَلَى الغَرْبَال وتْقُولِيهْ يا بُوعِيْنِيْن كْبَارْ: ويطلق على من يرى عيوبه قليلة ويسخر من الآخرين الأقل منه عيباً"[26]، فالغاية هنا هي التوبيخ والتقريع، لأن الخطاب في نسقه الإنشائي يحتمل صيغة: لا تتفاخر على غيرك وأنت أقبح حالا منه! وطبيعي أن المرجعية الواقعية الموظفة في السياق الحجاجي السابق لها سلطة لا تدفع، فتجعل كل محاولة لنقضها محاولة فاشلة؛ تؤذن بنهاية باعثة على السخرية، لأن عيون الغربال- بتعبير المثل - أصغر بكثير من عيون الشبكة. ولعل ذلك أن ينفتح تداوليا على فعل إنجازي وغاية تأثيرية هي التحذير: إياك أن تتفاخر على من هو في الأصل أفضل منك عيانا!.

كما يهيئ الربط الاستعاري عنصر المفاجأة من خلال تجسيد عالم خيالي يعمل على تكسير الروابط الطبيعية لصالح أخرى مجازية وهذا ما نلمسه في المثل الشعبي:" اللّيْلْ بَوْدِينَاتِو والنَّهَارْ بَعْوِينَاتِو: يُضرب في عدم قول الأسرار في الليل حتى لا تتلقفها آذن الذين ينتظرون ذلك، وكذلك القيام بأشياء في النهار حتى لا يروها"[27]. فالليل والنَّهار يحملان دلالة زمنية، حيث تشكل المحطة الأولى زمن الركون إلى الراحة والنوم حين يسود الظلام، وبالتالي تقل الحركة وتسكن، في حين تمثل المحطة الثانية الضوء والحركة والنشاط، فعملية ربط وحدتين زمنيتين (اللَّيل والنَّهار)، بوحدتين إنسانيتين(بوديناتو– بعويناتو)، يحمل على التناقض ويخلق نوعاً من الصدمة لدى المتلقي والفعل الإنجازي الذي يقتضيه المثل السابق هو التحذير، والحث على أخذ الحيطة: لا تأمن الرقباء في كل حين، فبالليل آذان تسترق السمع، وبالنهار عيون تختلس النظر!.

فإحداث الصدمة و المفاجأة في المثل الشعبي تكون مقصودة لكي ينفتح ذهن المتلقي لوصول الغرض من ذلك المثل، والمثل السابق يتعضد دلاليا وحجاجيا بقول النبي صلى الله عليه وسلم {استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمةٍ محسود}[28]، وبذلك يتبدى الجانب التربوي للمثل حين يتبنى تفاصيل حياة المرء بما يضمن له التوفيق في أعماله وأموره سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي.

2/ الكناية: يقول إبراهيم النظام:" يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة معنى، وحسن تشبيه، وجودة كناية، فهو نهاية البلاغة."[29] فالكناية "بمعناها العام هي التعبير عن المعنى تلميحاً لا تصريحاً وإفصاحاً كلما اقتضى الحال ذلك"[30]، فالكناية بمثابة الروح للمثل، حيث تربطها بهذا الأخير "علاقة عضوية داخلياً وخارجياً، فعلى المستوى الخارجي يلجأ المتحدث بالمثل الشعبي في كلامه لسببين رئيسين:

–اقتصاد في الكلام وفي اللغة وقت المحادثة.

–العجز عن قول شيء تصريحاً ومباشرة. وقد يكون العجز خوفاً أو احتراماً أو مدحاً أو ذماً لم يستطع المتلفظ التعبير به علانية. فيلجأ إلى الكناية أو التلميح.

على المستوى الداخلي: تساهم الكناية كإجراء لغوي بلاغي في بناء النص وفي توسيع دلائليته"[31]. حيث إننا في الكثير من الأحيان نجد أن المبدع الشعبي يتعمد التلميح، فيجنح بالكلام إلى المراوغة، مصداقاً للحكمة التالية: اللبيب من الإشارة يفهم، فنجد أنهم يفضلون

الشخص الفطن الذي يتلقف الكلام ولو كان رموزاً وإشارات، على عكس الشخص الذي يحتاج إلى الكلام الكثير لكي يفهم المراد والمقصود.

أمَّا عن معرض الكناية في الأمثال الشعبية فهي كثيرة جداً؛ ومن نماذجها: "اللِّي شَافِو ايْقولْ غِيرْ تْحطُّوا عاْلجَرْحْ يَبْرَا: ويُطلق على الشخص الذي يخيب الظن فيه فمظهره وأقواله تدل على شيء لكن في سريرته شيء آخر "[32]، ففي المثل كناية عن مناقضة عن المظهر للمخبر ،فشدَّة التناقض بين المعنى السطحي الذي يوحي بأن هذا الشخص هو محل ثقة و أمان، والمعنى الثاني المقصود وهو معاكس للمعنى الأولي تماماً، فالتحذير — هنا – هو الفعل الإنجازي في الكناية السابقة التي ورد الفعل القولي فيها وصفيا غير مباشر على طريقة الأمثال في التعميم واستعمال صيغة الغياب بدل صيغة الخطاب. وتتعزز جمالية الكناية في المثل السابق من خلال عنصر الإيهام، باستحضارها للموصوف بلسما شافيا، وهو السم الزعاف، فضلا عن اعتمادها على الحذف إذ التقدير: اللِّي شَافِو ايْقولْ غِيرْ تْحطُّوا عاْلجَرْحْ يَبْرَا ،وكي تجرب تقول الهربة ليك يا مولانا" مثلا.

كما يصادفنا مثل آخر يتضمن معنى الكناية عن الحرمان مع الوفرة والقدرة، عاكسا بذلك مظهراً من المظاهر الاجتماعية المتناقضة يقول المثل:" قْزار ويتعشى باللَّفْتْ: وأصله بالجيم(جزار) ويضرب للبخيل الذي يبخل على نفسه بما هو يتاجر فيه"[33] فنلمس في هذا المثل الشعبي تناقضاً بين الحالة المادية التي يعيشها هذا الفرد وبين حالته الاجتماعية، فغاية هذا المثل على صعيد الفعل الإنجازي تتمثل في التعجب الذي يرقى إلى درجة الاستنكار، والتحفيز على الاحتقار والتنفير "أجزّار وتتعشى باللفت" ؟ ليتكشّف البخل والحرص، ودناءة النفس، وسوء الظن بالخالق ، وبهذه المعاني نستقبل الأبعاد التربوية لهذا المثل.

ويستوقفنا مثل آخر يعكس تلك التناقضات التي نشهدها في الواقع فعلى سبيل المثال نجد صاحب الأمثال الشعبية يقول: "إِيْديرهَا ظَالَمْ وايخلَّصْهَا عَالم: ويُضرب للشخص الذي يدفع ثمن ما لم يقم به. وقد يحمل معنى آخر وهو أن الظالم عادة ما يحتمي بالعالِم لينقذه من ورطته، فيجد العالم نفسه محيرا على تحمل تبعات ما اقترفه الظالم طلباً للعفو عنه."[34] فالمثل هنا كناية عن تداخل الأمور وانقلاب الموازين، فيصبح الحق باطلاً، والباطل حقاً، فتتضارب النتائج مع المقدمات، ويصبح صاحب الفعل المشين في مأمن وسلامة، في حين يعيش البريء المظلوم في

سخط وعذاب. والفعل الإنجازي هنا يتمثل في الاستنكار والجملة المترجمة له هي الجملة الإنشائية الاستفهامية: " ايديرها ظالم ويخلصها عالم"؟ وطبيعي أن مقتضى ذلك يتجاوز الاستنكار كمعطى نفسي إلى حثٍّ المتلقي على رفض هذه النتيجة ومقاومتها في واقعه.

أما المثل التالي "خلاَّ لَبْعِيرْ ونَقَّزْ فالرَّحْوِيه"[35]، ففيه كناية عن ترك الأصلح والانشغال بغيره. "والرَّحويه هي الناقة الهزيلة المغلوبة على أمرها، فيجب أن لا نذهب إليها ونترك البعير القوي، ويضرب للذي لا يلتمس أصول الأشياء بل يذهب إلى فروعها."[36] كما نجد فيه دعوة إلى الأشخاص الذين لا يتلمسون الأمور في مواطنها وينشغلون بسفاسفها، وبذلك يتعزز فعل إنجازي يتمثل في السخرية والتعريض، ليترتب عنها ضمنيا نصح من خلال وضعية هي التنفير، ومن هنا نترجم الجملة الوصفية السابقة بجملة إنشائية تعتمد صيغة النهي:" لا تخلي البعير وتنقز فالرحوية".

وهناك من النماذج الكنائية أيضاً ما نلمس فيه تناقضاً؛ لكن عندما نقف على حقيقته نجده يمثل عين الصواب والحكمة، ففي المثل التالي الذي يقول: الموتْ بَيْنْ عَشْرَه نْزَاهَه: كنايةً عن تحبيب الجماعة وتبغيض الانفراد، بالحثِّ على التكاتف حتى في الأخطار ولا خطر كالموت مع عشرة من الناس يكون له فخر والفضل خير من أن يبقى حياً"[37]، أو "اللِّي تْخَافْ مَنُّو هْرَبْ لِيهْ: فالذي تخاف منه لا محالة أن لديه من الأشياء التي تساعده على التغلب عليك وما ليس بوسعك الحصول عليه لذلك فأنت مغلوب لا محالة إذا فعليك الخلاص منه بالهرب إليه."[38]

فالمثلان يحملان من التناقض ما يستدعي الاستغراب والدهشة، فكيف تكون الموت نزاهة؟!، و كيف للمرء أن يهرب إلى الشخص أو الشيء الذي يخاف منه ويخشى خطره؟؛ لكن بعد الوقوف على الدلالة الخفية التي يرمي إليها المثلان يمكن القول إنه في المثل الأول يتضمن كناية عن تحبيب الجماعة وتبغيض الانفراد، بما يضمن التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع، وبوصفه متضمنا في سياق تواصلي مفترض، فإنه يحيل على جملة إنشائية طلبية بصيغة الأمر: هي "مُوتْ مع عشْرة نزاهة، ولا العيشة وحدك"؛ ليترتب عن ذلك فعل إنجازي هو الترغيب بحيث يحلو الموت مع الجماعة ويغدو راحة ومغنما في مقابل حياة الانفراد. وسنلاحظ أنّ أثرا معنويا عميقا ينجر عن مثل هذه الكناية، ممثلا في تزيين المستقبح –عادة – وهو الموت بحيث يتجلى مجالا للتفاضل، وتعبيرا عن الاستهانة بعيشة الانفراد فإن المثل يسقطها من السياق أساسا عن طريق الإيجاز بالحذف.

أما المثل الثاني فإنه يعكس خبرة التعامل مع الأشياء التي نخاف منها، فما إن نصطدم بالشيء الذي نخشاه، حتى نتعرف على حقيقته وندركه دون مبالغة أو تهويل، فيندثر خوفنا منه؛ لكن إذا هربنا منه فإن شخصيته المتخيلة والمتوهمة سوف تظل قابعة في ذاكرتنا وقد تكون على خلاف الحقيقة بصورة تتجلى فيها العاقبة أوخم وأسوأ مما لو واجهناه ووقفنا أمامه، فالمثل كناية عن أفضلية الحسم بالقياس إلى عذابات التردد وتبعاته، ونستطيع ملاحظة الجملة الإنشائية في نهاية المثل "أهرب ليه" المحيلة على فعل إنجازي هو الحث، ويبدو أنّ المثل تعمّد استعمال الجملة الإنشائية بدل الخبرية، مراعاة لخصوصية المطلب، منظورا فيه إلى تساوي الأضداد: المخيف = يُطلب. بما يستدعي شحنة أسلوبية قد لا يفي بها الخبر كالقول مثلا: "اللي نخافوا منو نهربوا ليه".

خاتمة:

من خلال بحثنا في الأمثال الشعبية على صعيد وسائلها التصويرية، أمكن الخلوص إلى واقع أنها تظل تستخدم مختلف وسائل المثل الفصيح من استعارة وتشبيه وكناية ...الخ، بغرض تجسيد المعاني وتقويتها، غير أن المثل عامة، والمثل الشعبي خاصة بوصفه نصا تواصليا، وبصرف النظر عن بنيته اللغوية (الأفعال القولية) – التي قد تكون وصفية (خبرية) – إلا أنه في الواقع متضمن أفعالا إنجازية (النصح ،التحذير، الاستنكار...).

وقد لاحظنا أنّ تلك الأفعال القولية في صيغتها الوصفية يمكن ترجمتها بأفعال قولية إنشائية، تمثل بنيتها العميقة دلاليا بتعبير سيميائي، فقولنا (يديرها ظالم ويخلصها عالم) ليس تعبيرا محايدا؛ ولكنه تعبير عن مفارقة تُستقبل باستنكار، ولذلك فإن مرادفها الإنشائي المستهدف فعلا إنجازيا هو(كيف يديرها ظالم ويخلصها عالم؟؟).

والملمح المرافق لكل تلك الأفعال الإنجازية هو أنها أفعال إنجازية سلوكية تتراوح بين النصح والتحذير والترغيب والتعجيب والاستنكار ...الخ، بصورة تفصح عن السلطة الاجتماعية للمثل وغاياته التأثيرية بحيث أن المثل يستمد هذه السلطة من هذه المرجعية التي يحتفظ له بها المتلقي في وجدانه، ولا تتاح لغيره من التعبيرات التي لا تحظى بألفة شعبية.

والجانب الآخر ذو الأهمية البالغة، يتمثل في أن الأمثال الشعبية المدروسة بوصفها نماذج كشفت عن أهمية بالغة للصورة سواء في حضورها الجزئي من خلال الصور البلاغية التقليدية، أو باعتبارها مكونات مشهد كلي، ويتمثل هذا الجانب في نجاحها في التعويض عن المصاحبات اللغوية المقامية

التي تغيب مع الكتابة، فالفعل القولي في مقام التخاطب يستعين بوسائل إيحائية مختلفة، يستعين بها على أداء المعنى والإحالة على الفعل الإنجازي المستهدف، كالنبر والوقف والتنغيم والإشارة والرمز...الخ، وتلك الوسائل تغيب في النص الكتابي، لتتكفل الصورة بمعناها العام والخاص بالإحالة على تلك الدلالات والأفعال الإنجازية.

الخصيصة المرافقة للنماذج المدروسة، فتمثلت في البعد الناقد للمثل الشعبي في التفاته إلى صور التناقض التي تعج بها الحياة، فيجاور من خلال التصوير بين وضعيات متناقضة تترجم الانحراف، وهي وضعيات نوعية عميقة تغوص في أعماق المجتمع والنفس فتُشخص الآفة بدّقة وتجسدها عبر الصورة بتركيز شديد يختزل موقفا حجاجيا كان يمكن أن يشْخص من خلال مناظرة أو محاورة طويلة. ومن هنا يتجلى الطابع البراغماتي للمثل من حيث أن الصورة فيه، وعلى الرغم من جانبها الجمالي فإنها لا تستهدف المتعة الخالصة؛ ولكنها تنشد أيضا التأثير في السلوك الجماعي من خلال وظائف حجاجية و أفعال إنجازية ذات طابع عملي في الحياة والسلوك.

هوامش:

[1]– ابن منظور، لسان العرب، م11، دار صادر/بيروت، مادة(مَثَل).

[2]– راغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح:صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، مادة(مَثَل).

[3]–توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، ط1(1988)، بيروت/لبنان، ص: 33

[4]– صفي الدين الحلي، شرح الكافية البديعية "في علوم البلاغة ومحاسن البديع"، تح: نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، ط1(1982)، ط2(1992)، ص:115.

[5]–الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1(1981)، ص: 21.

[6]–ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج:3، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط1(1983)، بيروت/لبنان، ص:3

[7]– الميداني، مجمع المثال، تح: محمد محي الدين عبد المجيد، ج1، مطبعة السنة المحمدية، 1955ص:09

[8]–نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة، مصر/القاهرة، ص:144.

[9] – نبيلة إبراهيم، المرجع السابق، ص:140.

[10]– سعيد حمزاوي، مقال"رؤية نقدية لمنطلقات التفكير الأدبي"، مجلة الأثر، ع:05، مارس(2006)، ص:225

[11]– محمد إبراهيم أبو سنة، فلسفة المثل الشعبي، دار الثقافة للنشر، ط1(2009)، القاهرة، ص:03.

[12]–ينظر، ابن منظور، ج: 13، مادة(دول)، والفيروزبادي، قاموس المحيط، الهيئة العامة للكتاب، ص: 366.

[13]– صابر حباشة، التداولية من أوستين إلى غوفمان، دار الحوار، سوريا، ط1: 2007، ص: 18، 19.

[14]–ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف،دار الأمان الرباط، 1434 هـ - 2013 م، ط1،ص 201 .

[15] –محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب،دار الكتاب الجديد، الإمارات العربية المتحدة،2004 ،ط1 ، ص:13 .

[16]– سي كبير أحمد تيجاني، التداولية بين المصطلح وفلسفة المفهوم مقاربة تداولية للمثل الشعبي، مجلة مقاليد، ع1 ،جوان 2011 ، ص: 75

[17] –عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة ،ص: 78 .

[18]– السكاكي، مفتاح العلوم ،ضبطه وكتب هوامشه وحواشيه وعلق عليه نعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت، 1407 هـ -1987 م، ط2 ، ص:331

[19]– المصدر نفسه، ص: 504 ، 505 .

[20]–قيس حمزة الخفاجي، المفارقة في شعر الرواد، دار الأرقم، بابل/العراق، ط1(2007)، ص: 297.

[21]–ريتشارد، فلسفة البلاغة، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، إفريقيا الشرق، المغرب، (الدار البيضاء)، (2002)، ص:94.

[22]–سرقمة عاشور، أمثال شعبية بمنطقة "توات"، دار ضحى ، الجلفة/الجزائر، ط1(2017)، ص:49 .

[23]– أحمد أبا الصافي الجعفري، اللهجة تواتية الجزائرية، منشورات الحضارة، ص: 457، وينظر: سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص: 50.

[24]– أحمد أبا الصافي الجعفري، المصدر السابق، ص: 502وينظر: سرقمة عاشور، المصدر السابق،ص:55.

[25]– أحمد أبا الصافي الجعفري ،المصدر السابق، ص: 466.

[26]– سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:26.

[27]– سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص: 65.

[28]–علي ابن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحر: العراقي وابن حجر، ج:3، دار الكتاب العربي، بيروت/لبنان، ص: 195.

[29]–الميداني، المصدر السابق، ص:06.

[30]– عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، (1985)، ص:204.

[31]– محمد سعيدي، التشاكل الإيقاعي والدلالي في نص المثل الشعبي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون/الجزائر، (2009)، ص:62-63.

[32]–سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:33.

[33]– أحمد أبا الصافي الجعفري، المصدر السابق، ، ص: 499+469. وينظر: سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:116

[34]– أحمد أبا الصافي الجعفري، المصدر السابق، ، ص: 543.وينظر أيضا: سرقمة عاشور، المصدر السابق، ، ص: 57.

[35]–سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:58.

[36]–سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:58.

[37]–سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص67

[38]–سرقمة عاشور، المصدر السابق، ص:42